أنت صغير

بقلم: محمود الحسيني المرسى

انزوت القرية تئن وتتوجع كالهرة الكسيرة .. يلفها ظلام بهيم .. يشع منها الخوف والرهبة ويخيم عليها سكون عميق تحاول الضفادع أن تبدده بنقيقها الصاخب .. وهى تربض باطراف الجداول المحيطة بالقرية .. وبين الحين والحين يعلو نباح كلب أو كلبين اذا ما اشتمت قدما غريبة .. فى هذا الظلام .. وفى ذاك السكون . جلس « عم شحاته » .. الذى بدا المشيب يخط فى رأسه .. وبدأت التجاعيد تحبو على وجهه .. جلس على المصطبة « أمام الدار .. وقد ارتدى جلبابه الصوفى الوحيد .. ينحسر عند صدره عن شعر غزير .. وطاقيته البنية اللون تكاد تغطى أذنيه .. يتهادى الى سمعه فحيح أشجار الكافور ... وهدير القناة التى تصب ماءها فى قناة أصغر منها .. ونسمات كليلة تهب عليه فتلفح وجهه المكدود .. وتعيده الى ماضيه ... جلس شاردا يراقب الأطفال وهم يلعبون وينشدون أناشيد رمضان .. حاملين فوانيسهم الملونة يملأون القرية صخبا وصياحا .. فرحين مهللين فى انتظار « أبى طبلة » .. ظلوا هكذا تحت الفانوس المعلق فى أول الحارة تعبث به النسمات ويرسل شعاعه الواهن الضئيل المتراقص خلال زجاجه المهشم يحاول تبديد الظلام دون جدوى .. فينعكس ضوؤه المتناثر على جلاليب الاطفال فيبدون كالأشباح المتحركة فينهمك معهم بفكره وذهنه .. ويستعيد حياته .. فى مثل هذه الليالى .. ليالى رمضان منذ حوالى خمسين عاما مضت .. كان مثلهم يلعب كما يلعبون .. يجوب معهم حارات القرية ينشد كما ينشدون .. كان فانوسه أكبر فانوس فى « الشلة » .. بل كان هو زعيم «الشلة» ينشد وهم يرددون خلفه .. وكان هو الآمر الناهى .. لا يرد أمره .. ولا يخالف رأيه .. اذا جلس جلسوا .. واذا مشى مشوا خلفه .. حتى اذا جاء « عم عبده » المسحراتى تزايد صخبهم وعلا صوتهم .. فرحين بلقائه .. وساروا خلفه يرددون الدعاء التقليدى « بعوده وأنتم طيبين ... أحياكم الله الى كل عام » .. وتنبه عم شحاته « من ذكرياته على صوته الذى خرج عن وقاره ...وهو يردد فى سخرية .. « أحياكم الله الى كل عام » ثم تنفس بحقد دفين على تلك الايام التى لا تستقر على حال .. كساقية لا تكف عن الدوران .. ثم شرع بنظره يرنو نحو الأطفال الذين علا صخبهم وتزايد لفظهم

لاقتراب ميعاد « أبى طبلة » والى ابنه « صلاح » الذى برز صـــوته عن باقى « الشلة » وهم يرددون « رمضـــان تحت التل بيزرع خل محدش شافه » .. « رمضان تحت الكوم بيزرع توم محدش شـــافه » .. « ثم ما لبث عم شحاته « أن جذبته الذكريات .. الى حيث كان يلعب كما يلعبون .. وينشد كما ينشدون .. الى عهد الطفولة الذى ولى مأسوفا عليه .. كان يسير خلف أبى طبلة الذى يقف أمـام كل دار .. ويصيح باسم عائل الاسرة .. حتى اذا وصل الى دارهم صـــاح « عم عبده » المسحراتى بأعلى صـــوته « عم ابراهيم يوحد الله » .. فكان شحاته يلح عليـه أن يذكر اسمه هو أيضا .. ولم لا ؟ أليس هو زعيم « الشلة » ... انه أكبر أفراد « الشـــلة » جميعا .. انه ليس صغيرا .. ولكن « عم عبده » كان فى كل مرة ينهره قائلا « انت لسه صـغير يا شحاته .. السنة الجاية وعليك خير » .. فكان بذلك يثير سخرية الاطفـــال فيتمنى عندئذ لو كان رجلا حقا ليصفعه على وجهه ...

وظل الحال هكذا .. يوما بعد يوم يلح على عم عبده أن يذكر اســـمه .. وعم عبده مصر على الرفض بحجة أنه ما زال صـــغيرا .. وبعد أن يأخذ « أبو طبلة » ســـبيله لباقى بيوتات القرية .. يدخل شحاته « البيت منكس الرأس .. محطم الفـؤاد .. تتزايد ضربات قلبه .. وكأنها تقول .. أنت صغير .. أنت صغير .. انت صـــغير وكان شحاته يشكو أباه ذلك .. ولكن أباه يقول له أيضا .. « انت لســـه صغير يا شـــحاته » .. فيزداد غيظا وحنقا .. ويقســـم يمينا بالله أنه لن يتناول سحورا الليلة ..

ومرت الايام تلو الأيـــام .. وهـو يعيش على أمل يخفق بين جوانحه .. أمل صبيانى انه يريد أن يشعر بلذة النصر أمام أقرانه وعم عبده يصـــيح بأعلى صوته ..

ـ عم شحاته يوحد الله ..

وانقضى العام .. وأتى العام التالى .. « وأبو طبلة » مصر على أنه مازال صغيرا .. فكان شحاته لا يتمالك نفسه وهو يصرخ فى وجهه بأنه أكبر منـــه .. فيقطب « عم عبـــده » حاجبيه .. ويصيح فى وجهه غاضبا .

ـ اشمعنى انت اللى عامل شـــملول قوى .. يعنى فالح يا أخى .. معدش كمان اللى الصغار » ويهوى على الطبلة بعدة طرقات ثم يمضى سبيله بين البيوت المتناثرة فى أنحـــاء القرية .. يوقظ الفلاحين ... وكان فى بعض الاحيان يذهب شحاته « الى أمه ويناشدهـــا الحقيقة .. أهو صغير حقا ؟ ولكن الام كانت تبتسم له فى سذاجة وهى تقول

ـ لا يا ابنى انت ما شاء الله راجل .

فيعجب شحاته من أبى طبلة المجنون ومن أبيه ... ومن أصحابه الصغار .

ثم استطرد شحاته متأملا ..

وفى احدى الليالى ... بعد مضى حوالى سنتين انبعث فى جوف القرية صوت مكتوم معلنا نبأ موت الشـيخ ابراهيم « ... والده .. وكان ذلك قبل رمضـــان بحوالى شهرين وجاء رمضان يســـابق الايام ... واجتمع

الأطفال فى أول ليلة من لياليه ... فرحين مهللين . فى انتظار أبى طبلة .. وشحاته معهم فرحا مهللا .. فلقد تناسى موت أبيه .. بل كان يحمل فانوسه الملون ويتزعمهم كالعادة ..

وجاء أبو طبلة .. تدوى طرقاته من بعيد وتقول فى عناد واصرار .. أنت صغير .. أنت صغير .. انت صغير .. ومشى خلفه الاطفال يرددون الدعاء التقليدى « بعوده وأنتم طيبين . أحياكم الله الى كل عام » .. أما شحاته فقد تجهم وجهه ... وتقلصت عضلاته .. وتطاحنت دقات قلبه .. ثم يطلب من الله فى نفسه أن يكون رجلا فى هذه المرة ..

ووصل « أبو طبله » الدار .. وقف مشدوها مبهوتا .. فلقد سمع لاول مرة فى حياته اسمه يدوى فى ردهة أذنيه حتى ليكاد يصمها ..

ـ عم شحاته يوحد الله ...

دهش الأطفال .. ولم يصدقوا آذانهم .. وراحوا يتهامسون .. عم شحاته ؟ كيف ذلك ؟ .. لقد كان فى السنة الماضية صغيرا .. أصبح عم شحاته مرة واحدة ... وكانت هذه الليلة أسعد ليلة فى حياة شحاته .. وفى تلك اللحظة .. دوت طرقات أبى طبلة .. وقد ازداد صياح الاطفال وهم يهرعون اليه فرحين بلقائه ..

وانتشلت طرقات الطبلة .. « عم شحاته » .. من ذكرياته فتنهد بهم دفين .. وتململ فى مكانه جزعا .. انه نفس عم عبده المسحراتى .. ونفس صوته الأجش ونفس الطبلة .. ونفس الطرقات الكريهة التى ما زالت تقول فى عناد واصرار .. انت صغير .. انت صغير .. انت صغير .. انت صغير .. وانتفض .. عم شحاته .. يتأهب للدخول وهو يمصمص بشفتيه بعد أن سمع « عم عبده » المسحراتى يرفع عقيرته صائحا ...

ـ عم شحاته يوحد الله ...

ثم أعقبها بعدة طرقات .. وكانها على أم رأسه .. ثم مضى سبيله .. وخلفه الاطفال يرددون .. « بعوده وأنتم طيبين ... أحياكم الله الى كل عام » وتخلف عنهم ابنه « صلاح » ودلف الى البيت خلف أبيه ... لتناول السحور ... حاملا فانوسه الملون الكبير .. يطيح به فى الهواء ..

وحول الطبلة « اجتمعت الأسرة تتناول السحور .. وفى غمرة انهماكهم فى تناول الطعام ... صاح صلاح ..

ـ الى قولى يا با .. هوه عم عبده مبيندبش على اسمى ليه ؟ .

ولكن الأب ظلا صامتا ...